من التراث القريب

تاريخ الكتاب

عبد اللطيف الأرناؤوط

صدر كتاب « تاريخ الكتـاب » تأليف الباحث الكرواتي « الكسندر ستيبشفيتش »، والمؤلف علَم من أعلام الفكر والثقافة في جمهورية كرواتيـا ، وأستاذ في جامعة « زغرب » لمادة « تاريخ الكتاب والمكتبات » . اهتم بدراسة القبائـل الاليرية وتوزيعها في البلقان ·· وهـو من أصل ألباني في كوسوفا ·· ويعيش حالياً في مدينة « زارا » حيث استوطنت بعض العشائر الألبانية ·

يتناول الكتاب عرضاً عن نشـأة الكتاب والمكتبات في الحضارات القديمة في الشرق الأوسط حتى قيام الدولة العربية ، وقد أداره المؤلف على أحد عشر فصلاً استعرض فيها وضع الكتاب منذ نشأته ثم مكانته من حضارات الشـرق الأقصى القديمة ، مروراً بالعالمين اليوناني والروماني، ووضعه في أوربا خلال العصر الوسيط ، وفي بيزنطة ثم عنـد العرب ·

ومن مميزات « تاريخ الكتاب » الذي نحن بصدد الحديث عنه ، المنهـج الذي اتبعه المؤلف ، فهو يعنى بأهمية تطور تاريخ الكتاب خلال العصور أكثر مما يهتم بالجانب التقني لتطور الكتاب،حتى ليبدو ذلك عنده تأريخـاً للثقافـة والفكر الانساني ·

* * *

(★) تاريخ الكتاب··· تاليف الباحث الكرواتي : الكسندر ستيبشفيتش ، وترجمه الى اللغة الألبانيـة الكاتب : فاضل بوياري Fadél Bujari · ثم ترجمه الى العربيـة الدكتـور محمد م. أرناؤوط · وصـدر في سلسلة عالم المعرفة الكويتية في قسمين رقم ١٦٩ـ١٧٠ ، في / / صفحة من القطع المتوسط ·

في الفصل الأول : تنـاول **المؤلف** تاريخ الكتاب في الشرق الأوسط ، فيرى أن قصة الكتاب بدأت في بلاد الرافدين بفضل السومريين ، ويرجح أنهم أول من استخدم الرموز الكتابية للتعبير عن الفكـر بأسلـوب تصويري يعود إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد ، كما يصعب الجزم فيما إذا كانت سومر قـد ابتدعت الكتابة أو نقلتها من شعوب أخرى، فتشير الدراسات إلى العثور على رُقم طينية تعود إلى العصر الحجري في منطقة « تارتاريا » الرومانية ، وهناك تشابه ملحوظ بينها وبين كتابة سومر في الرموز والاشـارات ، وإن أقـدم « الرُقم الطينية » التي نقشت عليهـا الكتابة السومرية اكتشفت في « أوروك » وكان السومريون في بدء استخدامهم الرموز يستعملون نحو (٢٠٠٠) إشارة كتابية، ثم تطورت حتى بلغ عددها ٥٠٠ ـ ٦٠٠ رمز ·

وقد تمكن السومريون من تدوين مشاعرهم وأدبهـم الوجداني ، وبعض مناحي فكرهم المجرد بهذه الكتابة ، مع أنهم اخترعوا الكتابة تحت تأثير دوافع عملية منها تدوين الاتفاقيات التجارية والمعاهـدات وشؤون الدولـة ، ومما يثبت ذلك أن ٩٥٪ من النصوص التي عثر عليها تتعلق بأمور التجارة والادارة، إلا أن جانباً من هذه النصوص يتناول الأدب والقانون والمعارف العلمية في ذلك العصر · وكانوا يحتفظون برقمهـم في أماكن مخصوصة داخل المعابد والقصور في المكتبات أو المراكز الخاصة بهـا ، ويضعون لها فهارس اكتشف بعضهـا في « نيبور » مركزهم الديني والثقافي ، مما يثبت وضعهـم نظامـاً للتصنيف ، وكانت « الرقم » تصنف في مكتباتهم على رفوفها تصنيفاً منطقياً ليسهل الرجوع إليها · وكان السومريون أول من سجل ملحمة جلجامش ونقلتهـا عنهم شعوب أخرى ، كما دونوا المعجمات، والنصوص المتعلقة بالبيطـرة والرياضيات بهـدف حفظ المعارف للأجيال ·

ثم جاء البابليون بعدهم ، فطوروا ما أبدعته سومر في فن الكتابة، فنقلوا عنهم الكتب المسماريـة وشتى المعارف، وأسلوب بناء المدن والسدود ·

ولكي يفهمـوا تلـك النصوص وضعوا معاجم مقارنة بين اللغتين، وبفضل سومر تحولت ملحمة جلجامش إلى جزء مـن الأدب البابلي ، بل إنهـم فاقـوا أساتذتهم حتى سماهم عالم الآثار الألماني « غولدوي » : أحبّـاء الكتابـة إذ

خلّفوا لنا ما يتجاوز ٦٠٠ ألف رُقْم فيموضوعات عـدة ، وكانت « بابـل » تنسخ رقمها في ورشات عمل خاصة ،وتحفظها في المعابد والقصور ٠

وقد استخدمت الكتابة المسمارية غير « بابل » شعـوب أخـرى في بـلاد الرافدين ومنها شعوب « ايبلا » التـي اكتشفت مكتبتهـا في « تل مرديـخ » شمالي سورية ، وتُعدُّ أقدم مكتبة نظاميـة في الشـرق الأوسط ، وجدت في قصرها الملكي الذي تهدّم عام ٢٢٥٠ ق.م ، على أثر حريـق شبَّ فيـه إثر هجوم الملك الأكادي « نارام سن » ٠ وكانت الرُقم تصنف على رفوف المكتبة بأسلوب يسهل معه تعرّفهـا أو على الجدر الأرضية ، حيث يبدو من كل رقم بداية النص ، وفي رأس اللوح يكتب عنوانـه بما يسهّل الرجوع إليـه دون تحريك الرقم ، وقـد تبين من قراءة نصـوص بعض رقمها أنهـا تتضمـن نصوصاً إدارية وقانونية وتجاريـة ،وأوامر ملكية ، واتفاقيـات وسجـلات لحكام إيبلا ، ورسائل تاريخية وأناشيدوقصص أدبية وميثولوجية ومعجمات ٠

وفي « أوغاريت » عثر في « راس شمرا» في اللاذقية ، على رُقُم طينية تشهد لهذه المدينة بالتواصل الحضاري المبـدع ، وقـداستخـدم في كتابتهـا الحـروف المسماريـة بالأوغاريتية ولغات الشعوب الأخرى ٠

وتستمد تلك الرقم أهميتهـا من حيثانها استطاعت أن تقدم معلومـات تاريخيـة هامة عن تاريخ الشرق الأوسط في القرن الثاني قبل الميلاد ، بالاضافة الى محتواهـا الثقافي والأدبي ٠ وقـد بسط الأوغاريتيونالحرف المسماري حتى لم تتعد رموز الكتابة عندهم (٣٠) رمزاً ؛ فهم أول مَنْ رمّزَ الأصوات بالحـروف واخترعوا الأبجديـة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ٠

وكان الكهنة يتولّون شؤون الكتابةوتعليمها ، وحفظ المكتبات ٠ كما تمّ اكتشاف رقم لمعجم مقارن بين أربع لغات هي السومرية والأكادية والحوريـة والأوغاريتية ومكتبتين خاصتين فيهما مجموعة من الرقم المثيرة ، مما يشير إلى علوّ قدر الكتاب والفكر في حياة المجتمع الأوغـاريتي ، وإسهامـه الحضـاري والتربوي ٠

وفي شرقي « أنقرة » كان للحثيين إسهام كتابي ، فقـد اكتشف في عاصمتهم آلاف من الرقم الطينية تحوي كتابـات حثية بالمسمارية البابلية ، دونت خلال

القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، وتتضمن نصوصاً دبلوماسية وإدارية وتاريخية وحكايات سومرية وبابلية ، وكانت الرُقم تصنف بأرقام وتُفهرس ٠

ولعل أهمّ مكتبة وأوسعها تلك التي أسسها الحاكم الآشوري المثقف « آشور بانيبال » ؛ فقد وجدت في قصره غرفة للسجلات ومكتبة تحوي أكثر من عشرين ألف رقيم طيني ، وقد توصل الباحثون إلى أن هذه المكتبة كانت ثمرة طموح ذلك الحاكم الآشوري المحب للعلم في أن يجمع في مكان واحد كل ما أبدعته الأجيال السالفة في الشرق الأوسط من علم ومعرفة ٠ ولتحقيق هذا الغرض كُلّف جيش من الكتّاب ، بأمر الملك ، نسخ كل نص قديم مرات عدة ، وتحديد مصدره ، بالاضافة إلى نقل رقم من المدن الأخرى في دولة آشور إلى المكتبة الملكية ، وقد ورد في رسالة له إلى أحد المسؤولين : (ابحثوا عن الرقم القيمة التي لا يوجد منها نسخ في بلاد آشور وأرسلوها إليّ) ويمكن أن تكون هذه المكتبة أشبه بمكتبة الاسكندرية في العصر الهليني فيما بعد ٠ وقد ساعد اتساعها على بروز عدد من المشكلات في تصنيف مادتها وفهرستها ، غير أن القائمين عليها أفادوا من خبرات سلفهم، فقسموا محتويات المكتبة إلى موضوعات كما هي الحال في الفهارس الحديثة ، ولم يكن في وسع أي شخص أن يستفيد منها شأن المكتبات العامة ٠ وكان لها مدير يُشرف عليها ٠ وقد دمرت هذه المكتبة زمن الملك « الميدي كازاس » ولم يتم تجديدها في نينوى العاصمة التي هُجرت ٠

يضاف إلى هذه التركة من المكتبات في الشرق الأوسط ، مكتبات شعوب أخرى منها مكتبة « لاغاش » السومرية، ومكتبة «شوروباك» ومكتبة «بورسيبا» في هيكل الاله بعل ، ومكتبات أخرى في مدن بابل وأوروك ٠

وقد وحّد الكتاب بين شعوب الشرق الأوسط ، وعمل على تثقيفها ، ووضع الثقافات الخاصة لها ، كما ربطت الكتابة المسمارية بين هذه الشعوب ، وظلت متداولة إلى جانب الكتابة الأبجدية حتى القرون الأولى بعد الميلاد ٠

استخدمت هذه الشعوب الطين وسيلة للكتابة ، وهو مادة مرنة تقاوم عوامل المناخ ، وتكتسب صلابة بعد شيّها ، وكان يؤخذ من ضفاف دجلة والفرات ثم يصفى من الرواسب والشوائب ، وكان حجم الرّقْم يراوح بين ٥ ــ ٦ سم عرضاً و ٢٥ ــ ٣٠ سم طولاً ، وبعد أن تنقش عليه الكتابة يعرض للشمس أو يُشوى ثم يحفظ على الرفوف أو في الخوابي ، وكانت بعض الرقم تتحول مجدداً إلى طين بفعل الرطوبة .

وقد احتلّ الفينيقيون مكانة بارزة في تاريخ الكتابة والكتاب ، فقد سكنوا منذ الألف الثالثة ق.م ساحل سورية ولبنان ، ومارسوا التجارة مبكراً وجازوا البحار منذ القدم ، وساعدهم موقع وطنهم على التفاعل الحضاري مع الشعوب الأخرى .

وكانت لهم مستوطنات تجارية على السواحل ، ولهم الفضل في وضع نمط جديد من الحروف أسهل من الكتابة المسمارية ، والهيروغليفية ؛ فقد أبدعوا أبجدية جديدة بحروف لا تتجاوز ٢٢ رمزاً للتعبير عن الأحداث ، لكنهم لم يكونوا أول من فعل ذلك ، فقد سبقهم الأوغاريتيون .. إلا أن لهم الفضل في تبسيطها ونشرها ، وقد اقتبسها عنهم اليونانيون ، وكان لهم فضل التجارة بورق البردي يستقدمونه من مصر ، ويبيعونه لليونانيين مما سهّل عملية الكتاب ، ولم يصل إلينا من وثائقهم ومكتباتهم ، باستثناء ما وُجد في قرطاجة المستعمرة الفينيقية ، كما وزعت كتب مكتباتها على الحكام الافريقيين بعد أن دمرها الرومان سنة ١٤٦ ق.م ، واستفادت روما من كتاب الكاتب القرطاجي « ماغوا » في الزراعة وترجمه إلى اللاتينية ثم اليونانية .

وتطورت في مصر أيضاً الكتابة منذ الألف الرابعة قبل الميلاد ، وحظيت بمكانة خاصة ، ونعثر في النصوص المصرية على أقوال تحثّ على حب الكتاب والتعلم مثل : « ليس ثمة أثمن من الكتاب » . وكان تعلّم الكتابة يمهد للفرد سبيل احتلال أرفع المناصب في الدولة ، وكانت الكتابة المصرية بأشكالها الثلاثة المتتابعة الهيروغليفية (الألف الرابعة ق.م) والهيراطيقية (الألف الثالثة ق.م) والديموتيقية (القرن السابع ق.م) تتطلب تدرباً طويلاً ، ولا يتقنها إلا المبرزون . وكان المصريون يقدرون الكتابة لتقديرهم العبادة ،

وكان لهم فيها انتاج غني • وشبكة جيدة لتوزيع الكتب ومكتبات غنية ، لكنهم لم يتحمسوا لكتابة تاريخهم ومعارفهم التي كانت تنقل مشافهة من جيل إلى آخر ، كذلك الأدب الذي كان ينتقل بالمشافهة باستثناء بعض قصائد المدح والنصوص التربوية •

وكان الخط الهيروغليفي الجميل ينقش على المعابد في الحجارة أو في مواد طرية كالرسوم ، ولم يستعملوا اللوح الخشبي للكتابة الا لتدوين النصوص القصيرة ، ثم استخدموا الرق منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، وأهم مادة عندهم للكتابة ورق البردي الذي أصبح سلعة هامة للتصدير ،وكانت الكتابة الهيراطيقية المبسطة عن الهيروغليفية تكتب عليه وترتبط به ، وقد ساعد مناخ مصر على حفظ عدد من وثائق البردي ، واستخدم المصريون أقلاماً من نبات ينمو في المستنقعات يراوح طولها بين ١٦ ـ ٢٣ سم ، وحبراً أسود أو أحمر يحفظ في دواة من القصب أو علبة من الخشب أو العاج•

وكان الكتّاب من موظفي الدولة، يعملون في نسخ الكتب للمدارس ، وتسيير شؤون الدولة ، أو يدونون النصوص الدينية والأدبية ، وأبرزها كتب الأموات التي تتناول ما ينتظر الانسان في الآخرة من حياة ، وتوجهه لاستقبالها ، وكانت تزين بصور ملوّنة •

والكتب تحفظ لديهم في هيئة لفافات في صناديق خشبية أو جرّات فخارية ، ولم يحتفظ المصريون بمكتبات خاصة لعوامل كثيرة منها أن رجال الدين كانوا يحتكرون صناعة الكتاب وحفظه وتسويقه ، وقد أكدت الحفريات أن ملوك مصر كانت لهم مكتبات في قصورهم ولها مدير ورئيس لكل قسم ، وهم أول من حاول فهرسة محتويات المكتبة •

* * *

وفي الفصل الثاني : يستعرض المؤلف بداية الكتاب ومواد الكتابة والمكتبات في الشرق الأوسط ، وبدء الكتابة في الصين منذ الألف الثالثة قبل الميلاد •• استخدموا من قبل نظام العُقَد ، ثم اعتمدوا الكتابة التصويرية التي بعدت رموزها عن صلتها بما يمثلها من الأشياء ، واستخدموا من مواد الكتابة « الخيزران والعظام ودروع السلاحف والخشب والأحجار ثم الحرير ». إلى أن اكتشفوا ورق البردي نحو ١٠٥ ميلادية •• ثم الورق المصنوع من

الحرير الخام أو من لحاء الشجر والحبال القديمة والخرق ، ثم يطلى بالجبس لئلا يتفشى الحبر على الـورق في الكتابة ٠ ومن الصين انتقلت صناعة الورق إلى اليابان عام ٦١٠ م ، ثم عرفته أوربة ٠

وفي مجـال إنتـاج الكتـاب فان الصينيين كانوا يطبعون الكتب عن طريق النسخ ، وكانوا يخشون تحريف النسّاخ لنصوص الكتـب المقدسـة ، ولـذا حرص رجال الدين على التماس طريقة لنسـخ الكتب بصورة سليمـة ، حتى استطاع حكـام الصين نقش النصوص الدينية في قوالب من الخشب توضع في الأماكن العامة ، ثم تنسخ على الورق وذلك منذ عام (٢٠٢ ق.م) زمن أسرة « هان » ٠ واستخدمـوا للكتابـة قلم الخيزران ثـم فرشاة مصنوعـة من وبر الجمال ، تتميز بقدرتها على رسم زوايا الحـروف بخـط رقيق مما ساعـد على تحسين جمالية الخـط الصيني فأصبح فناً وزخرفاً ، وقد حارب بعض حكـام الصين الكتاب ، وأمروا بحرقه انتقامـاً من بعض الكتّاب الذين كانوا يعارضون سلطتهم ، لكن بعضهم كان يأمر بحفظ نسخة من كـل كتاب يُحرق كوثيقة ، فكان له فضل حفـظ بعض الكتب من الضياع ، وقد شجعت أسـرة « هان » نسخ الكتب ونشرها ٠

وعرفت الكتابة في الهند منذ الألف الثالثة قبل الميـلاد ، وكانت تتألف من [٢٥٠] إشارة مختلفة ، وتكتب النصوص على الحجر والخزف وألواح النحاس، ولم تحل رموزهـا إلى الآن ، ثم تحولت إلى الحروف الهندية المعروفـة ٠ ومن أقدم الآثار التي وصلت إلينا بالحروف المعروفة مراسيم الملك آشوي (٢٧٣ ــ ٢٣٦ ق.م) منحوتة في الحجر ، وكان الهنـود يعتمدون على المشافهة في نقـل أدبهم وملاحمهم البطولية من جيـل إلى جيل ، وكانوا يستخدمون لحـاء شجـر النخيل في الكتابة ، أو القشرة البيضاء لشجرة الباتولـد ، وكلاهما لا يـدوم طويلاً في ظروف مناخ الهند ٠

* * *

وفي الفصل الثالث : يتنـاول الكاتب الكتـابـة في العـالمين اليـونانـي والروماني واسهام الثقافتين « المينوياسية » في كريت و « الميسينية » باليونان

فيها ٠٠ ففي كريت بدأ استخدامها تصويرية منذ بداية الألف الثانية ق٠م ثم تلتها الكتابة الخطية ، وقد حلت الرموز على الرقم التي دُونت في سجلات العمال في القصر الملكي وأنواع الحيوان التي تُجبى من الرعاة للحاكم والمنتوجات الزراعية ، وقد تكون النصوص الدينية أو الأدبية فُقدت مع الزمن ، كما كانت معرفة الكتابة مقصورة على كتبة الدولة وموظفيها ٠ واقتبست آسيا الصغرى حروفها من الفينيقيين ، ولعل ذلك كان في القرن العاشر ق٠م٠ ويُعزى الى « قدموس » نقل الحرف الى اليونان عن طريق التجارة ، ونقلت فينيقية أيضاً انجازات ثقافية لحضارات الشرق الأوسط الى اليونان ٠ وفي المدن الأيونية تطور انتاج الكتاب على نمط مكتبات الشرق الأوسط ، دون أن ينتشر الكتاب بين الناس ، بل كان يوزع منه نسخ محدودة ويحفظ أصله في المعبد للأجيال ، ويعتقد بوجود مكتبة في « ميليت » دمرها الفرس عام ٤٩٤ م ٠

وبدأ ازدهار الثقافة في اليونان منذ عهد « بركليس » وتحولت الى مركز لثقافة الكتاب ، وكانت الوثائق تنقش في الحجر أو تُكتب على البردي ، وكان عدد الملمين بالقراءة محدوداً ٠ ومنذ العصر الهليني نهضت الكتابة بصورة ملحوظة ، فقد أمر « بيزسترات » حاكم أثينا بتدوين الالياذة والأوديسة بعد أن كانت تُروى مشافهة ٠

وفي العصر الهليني بالذات ازداد باستمرار عدد الكتب المتداولة، وتحولت « رودس وانطاكية ، وبرغام والاسكندرية » الى مراكز هامة لانتاج الكتاب ، وارتفع عدد المكتبات الخاصة والعامة ٠

وفي القسم الغربي من ايطاليا ، اقتبس الاوتروسكيون أبجديتهم من اليونان ، فكتبوا مؤلفات دينية وسحرية ضاع أكثرها بعد تدمير الرومان لمدنهم ، منها كتاب الشعائر وكتاب البرق وكتاب العرافة ، وكان الكتاب عندهم على صورة لفافة أو دتبك (لوحان من خشب تربط بينهما مفصلات وتُكسى بالشمع) أو يكتبونها على البز ٠

وفي روما تعلم الرومان من أثينا والأتروسكيين احترام الكتاب ، وقبسوا أبجديتهم من اليونان أو من الأتروسكيين، وقد نهب الفاتحون من قادتهم مكتبات

كاملة من المدن اليونانية التي فتحوها ، واعتمد عصر الجمهورية على ثنائية الثقافة والكتابة ، فقد عرف الرومان الكتابة باللغة المحلية الأثينية الى جانب اليونانية ، وبدا ذلك واضحاً في انتاج الكتاب ، فكتب « شيشرون » رسائله باللاتينية في القرن الثاني ق.م. وخطر ليوليوس قيصر أن يؤسس مكتبة عامة . وفي نهاية عصر الجمهورية شاع الكتاب حتى أصبح زينة للبيوت وتنافس أفراد الشعب في اقتنائه .

وفي العصر الامبراطوري بدأ العصر الذهبي للثقافة الامبراطورية فانتشرت مؤلفات كبار الشعراء مثل : فرجيل وهوميروس ، ولدينا معطيات من هذا العصر حول مادة الكتاب وبيعه ونسخه ، وقد بنى أغسطس مكتبة في روما ، كما دخل تصنيع الكتاب بعد (ترايان) والحديث عنه في مسرحيات « كلوكيان وسنيكا » على نحو رائع شجع على اقتنائها .. وكان يتخلص من الكتب المحظورة بحرقها كما حدث لكتب الفيلسوف اليوناني بروتاغورا (٤٨١ ـ ٤١١ ق.م) الذي شكك في وجود الآلهة ، وقد لاحقت روما الكتاب بعنف أشد مما دفع الكتّاب المعارضين لسياستها الى طبع أعمالهم النقدية دون تثبيت اسم المؤلف عليها . وكذلك انتحر لابينوس الذي كان من أنصار الجمهورية حين أصدر مجلس الشيوخ الروماني قراراً بحرق كتبه .

وحارب الرومان أدب الاثارة الجنسية حفاظاً على الأخلاق القويمة ، وعمل « أوغسطين » على سحب هذه الكتب من المكتبات ، ودفع « أوفيد » شاعر الحب والجنس حياته عندما صدر أمر تقديمه للمحاكمة ، وكذلك ضيقت المسيحية على الكتب التي كانت الوثنية تردّ فيها على معتقداتها بالمصادرة والحرق ، الا أن تلك الاجراءات لم تمنع من تسربها بسبب قوة شبكة التوزيع ، كما قضت الحروب المدمرة على المكتبات ، كتدمير الفرس مكتبة « ميليت » اليونانية ٤٩٤ م ، وتدمير الرومان مكتبة الاسكندرية ، وكذلك مكتبة القسطنطينية خلال الصراع على السلطة عام ٤٧٥ م ، وكانت تُعد أكبر مكتبة في العالم ، وتدمير البرابرة لمكتبات المدن الرومانية خلال هجماتهم المتواصلة .

وكان أول دليل مرجعي للكتب من عمل مدير مكتبة الاسكندرية « كاليماخ » بعنوان « بيناكس » ويقع في ١٢٠ مجلداً ٠وفي حوالي (١٠٠ سنة ق٠م) بدأ ظهور أدلة مرجعية لعدة مكتبات منها دليل « أرتمون » وكتاب « هيرونبوس بيلون » من بيبلوس « جبيل » الذي صنف بحسب اختصاصات المؤلفين ، ومن بعده « تيليفوس » من برغام الذي ترجم لحياة المؤلفين وكتّاب المسرحيات، ومن الرومان « سينتون ٧٠ ـ ١٤٠ م » مؤلف سير الرجال البارزين ٠

وكانت مكتبة الاسكندرية تحوي في عهد البطالمة ٧٠٠ ألف كتاب منها ما هو متكرر ومحقق ، وتضم أعمالاً يونانية ومصرية وعبرية وبابلية فارسية ، وقد أمر يوليوس قيصر باحراق السفن في الميناء سنة (٤٧ ق٠م) ٠

★ ★ ★

وفي الفصل الرابع : يقدم الكاتب عرضاً للكتب والمكتبات في العصر الوسيط ، فتناول وضعهما في دول البرابرة كالقوط في اسبانيا واللونغوبارديين في ايطاليا، فارتدت صناعة الكتاب الى سابق عهدها القديم ٠ وفي الامبراطورية الرومانية الغربية تدهورت الأوضاع الاقتصادية ٠ أما في الشرق فقد برز العرب المسلمون بقوة ، ومع أن نهضتهم في مجال الكتب والمكتبات استندت الى التجربة اليونانية والرومانية الا أنها كانت تختلف عنهما تماماً ، وأدّى الازدهار الاقتصادي للمدن الى تضخيم انتاج الكتب وبروز المراكز الثقافية ولما برزت الأزمة الاقتصادية منذ القرن الثاني ، هبط مستوى الابداع ، ولكن انتاج الكتاب ظل مزدهراً ٠

وفي نهاية العصر الروماني أدى انتشار المسيحية الى تحولات في انتاج الكتاب فمال أنصارها الى صنع الكتاب على صورة كراسات من الرق بدل البردي ، وكان النسخ يقوم به أتباع الدين الجديد المتحمسون ، والرهبان في الأديرة ٠ أما الوثنية فقد تابعت نشاطها الأدبي والعلمي يساندهم المفكرون الذين حاولوا انقاذ التراث القديم ، فنسخت الآثار الأدبية والعلمية القديمة من لفافات البردي الى كراسات من الرق ٠

وكتب الرومانيون على النسيج والحجر والفخار والمعدن ، والشمع .. وقد زيّنت أغلفة الكتب بالرسوم ، وحين يتطلب الأمر مسح الكتابة كان يتم

تسوية سطح الشمع بأداة مستوية فيمحى ما عليه ، ويكتب على الشمع بقلم دقيق • ومن بين المواد استخدموا جلد الثعبان • أما الحبر فكان ماء الذهب وشرائح الفضة والرصاص لتدوين الملاحظات الدينية والسحرية ، والبرونز لكتابة الوثائق الهامة •

وكتبت الشهادات العسكرية على لوحين مربوطين بشريط مختوم في سبعة مواضع ، وكتبوا على ورق البردي الذي يصل عرض أوراقه عرض راحة كف الانسان ، وكانت تُزال ساقه وتقسم الى شرائح يمتد طولها الى ما يقارب المتر ثم توضع الشرائح متصالبة وتُغمر بالمياه ثم تجفف تحت أشعة الشمس • ثم تصقل حيث لا يتعدّى طول الصفحة (٢٥ ـ ٣٠ سم) ويكتب فوقها عمودياً • وكان يستورد من الاسكندرية ويصل الى روما عن طريق ميناء « أوشيعا » • ويكتب أحياناً على وجهي الرق لكنه أكثر كلفة من البردي • ومع تطور انتاج الكتاب من الرق تطورت صناعة أغلفته فبدت أكثر تزويقاً وتزييناً ، مثلما تطورت الحرف الفنية المرتبطة بتصنيعه ، وقد ضمن الرق بقاء الكتب زمناً أطول ، واستخدم في الكتابة الأقلام المذهبة والبرونزية وريش الطيور ، وتزينت المحابر الفخارية والبرونزية بالرسوم • وكانت الكتب تُقرأ بصورة علنية ، وتحدد ردة فعل الجمهور مدى نجاح الكتاب ، ويستأجر الموسرون نسّاخين لنسخ الكتب الثمينة وتوزيعها أو بيعها • وقد يتولى ناشرون تكثير الكتب بالنسخ من قبل ورش خاصة ، لكن التحريف والغلط شاع في أعمالهم بسبب السرعة لتلبية حاجة الناس ، وكان لباعة الكتب دكاكين خاصة فيها اعلانات معلقة تتضمن عناوين النسخ الموجودة لديهم ، مع شبكات للتوزيع ، ولم تكن أثمانها مرتفعة الا اذا كان نسخها من نوع خاص أو من قبل ناشر مشهور •

وقد استمرت عملية النسخ في العصر الوسيط الا أن الحروب الطويلة أدت الى تلاشي المجتمع القديم والتنظيم القديم لانتاج الكتاب ، وتحوّل الكتاب الى أن يكون مادة للتقديس والسحر ، الا في حالات استثنائية ، مثلما تلاشت أعداد من الكتب القديمة وحلّ محلها مؤلفات في المكتبات الجديدة للمسيحية في الأديرة والكنائس • وقد ازدهرت عملية النسخ في شمالي افريقيا ، ووصل قسم

منها الى اسبانيا خلال القرنين السادس والسابع · وعرفت اسبانيا عهداً من التسامح الفكري ، فألّف القديس «ايزودورس» آخر عمل موسوعي للعصر القديم انتشر في أوربا الغربية ··

وأدى فتح العرب لاسبانيا الى نتائج مشابهة· فكتب المؤلفون كتبهم باللغة القوطية الغربية بعد نزوحهم الى بلدان أوربا ، ولكن ايطاليا ظلت أكبر منتج للكتاب في بداية العصر الوسيط ، وكانت الأديرة تسهم اسهاماً كبيراً في عملية النسخ وكذلك قصور الحكام ·

وقد أدى تدمير النظام المدرسي للعهد القديم اثر غزو البرابرة الى تعطيل المدارس وانتشار الأمية ، واعتمدت الدعوة التبشيرية لنشر المسيحية على الكلمة الشفوية والرسم ، كما سعى الرهبان لتطوير التعلم · وفتح شارلمان المدارس فتزايد الطلب على الكتب · على أن اهتمام الكنيسة بنشر الكتاب كان دينياً في الدرجة الأولى ، فاختفى كثير من المؤلفات الوثنية ، غير أن الكنيسة بعد زوال خطر الوثنية أخذت تهتم بنسخ كتب الكتّاب الوثنيين منذ القرن الثامن الميلادي وقراءتها ، ولا سيما الكتب الأدبية ·

ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي بدأ تراجع الأديرة كمراكز للثقافة ، وشرعت الجامعات والمدارس العلمانية تحتل دورها في نشر الكتاب ، وأقبل المتعلمون على قراءة المؤلفات اليونانية والرومانية الوثنية ، وكانت الأديرة تهتم بأن يكون لديها أبرز النسّاخ لارضاء طلبات الحكام ، وبرز منهم فنانون ، وبرز دير « فيغاريوم » في صناعة الكتاب الذي أسسه وزير الملك القوطي « تيودوريك » في راغينا ، وكان يطمح أن يجعل من الدير مؤسسة علمية تحوي التراث الوثني والمسيحي ، كما برز دير القديس « بنديكتي » الذي أصبح مركزاً ثقافياً هاماً ، وكان له فضل انقاذ مؤلفات التراث القديم والتمهيد للنهضة الأوروبية في العصر الوسيط ، وقد وجد المتنورون من المخطوطات النادرة مصادر النهضة التي أصبحت أساساً لنهضة الجامعات والتعليم في أوربا · وتحولت صناعة الكتاب الى ورشات تابعة لهذه المؤسسات التعليمية الجديدة · أما خارج نطاق الجامعات فقد قامت ورشات تجارية لنسخ الكتب وتحولت الى مشروعات قبيل عهد الطباعة في القرن الخامس عشر الميلادي ··

ومن أشهر ناسخي الكتب في ألمانياكان « ديبولد لوبر » الذي أسّس ورشة خاصة تقدم الكتب المنسوخة بثمن معتدل الا اذا كان بناءً على توصية سابقة ، وقد استمر في النسخ حتى قيام « غوتنبرغ » بالطباعة ·

وأسهم ظهور الأدب الشعبي منذ القرن الثالث عشر الميلادي في انتشار الكتاب لايصاله الى أكبر قطاع من الشعب ، فدوّنت الكوميديا الالهية بهذه اللغة الشعبية التي تفرعت عن اللاتينية ، وكذلك تمّ التخلي عن الرق والبردي ، وأصبح استيراد مادة الورق من بلاد العرب من دمشق عبر القسطنطينية ومن افريقيا عبر صقلية، واحتكر العرب انتاجه زمناً طويلاً ·



وفي الفصل الخامس : نرى أن القسطنطينية لم تصل الى المستوى الثقافي الذي كان لروما ، وبعد غروب العصر القديم واغلاق مدارس الفلسفة بسبب الصراع الديني قلّ الاهتمام بالكتاب· وكانت المدينة في بيزنطة تملك المكتبة الامبراطورية التي أُحرقت سنة ٤٧٥ م ، وحاولت بعد ذلك أن تستعيد مكانتها ·



وفي الفصل السادس : يتحدث المؤلف عن تاريخ الكتاب عند العرب بعد الاسلام ، فقد قوّض الفتح العربي الاسلامي امبراطوريتي بيزنطة وفارس ، واتسعت رقعة الدولة مما أسفر عن اتصال ثقافي وتمازج فكري ، وامتزجت الثقافة العربية بثقافة البلدان المفتوحة، وعُرف العرب بالتسامح ازاء الثقافات الأخرى ولا سيما الفارسية ، مما أدّى الى ازدهار الأدب والفن والعلم ، فلجأ الى فارس فلاسفة الأفلاطونية الجديدة بعد أن أغلقت مدرستهم في روما عام ٥٢٩ م · ونجح العرب في مدّ جسر ثقافي بين الشعوب ، ونشر لغتهم وثقافتهم · وكان حب العرب للكلمة المكتوبة يتمثل بحبهم للخط العربي ، اذ به كتب القرآن الكريم ونال قدسيته ،وهو أيضاً مادة جمالية تزين به جدران المساجد وبأشكال فنية· وللحرف العربي أيضاً سحره ، فهو رمز للنفس ·· وقد

تطور الخط العربي عن الخط النبطي ،واستخدم العرب الرق ثم البردي في الكتابة بعد فتح مصر ٠

وفي عام ٧٥١ م نشب نزاع بين قبيلتين عربية وصينية ، وأسفر الخلاف عن أسر بعض الصينيين الذين يعرفون صناعة الورق ، فاقتيدوا الى مدينة « سمرقند » وتمت مساعدتهم في انشاء مصنع للورق فيها ، ثم انتقلت الصنعة الى « بغداد » ٠ وفي دمشق كان يُنتج الورق الدمشقي وهو أفضل أنواع الورق ، ثم ظهرت معامله في مصر حتى طغى على ورق البردي ، ووصل انتاج العرب من الورق الى أوربا ، غير أن استعمال الرق في الكتابة ظلّ شائعاً بعد انتشار صناعة الورق ، وكُتبت به نسخ من القرآن الكريم ، ومع انتاج الورق بدأت المرحلة الذهبية للكتاب الاسلامي ، وتنافس الخلفاء في اقتناء الكتب المخطوطة وترجمتها الى لغتهم ،وبرز خطاطون معروفون كابن البواب وابن مقلة٠ وكانت تجارة الكتاب نشطة حيث تتركز دكاكين الوراقين حول الجوامع وتكون مركزاً للتلاقي المثقفين ،وازدهر في « بغداد » انتاج الكتب ، وبلغ عدد المكتبات فيها (١٠٠ مكتبة)،وكان يستورد الكتاب من سورية والهند وبيزنطة٠ وكان ثمن الكتاب فيها مرتفعاً حتى ليذكر أن نسخة كتاب الطبري في التاريخ بلغ ثمنها مائة دينار ٠ وعُرف عن المأمون ولعه بالكتب ونقلها الى العربية ، والبحث عن المخطوطات النادرة في الشرق الأوسط ، وهو مؤسس « بيت الحكمة » التي حوت مليون مخطوط ٠٠ كما انتشرت المكتبات الخاصة ، ووضعت للمكتبة فهارس رتبت الكتب وفقها ٠

وبرزت « القاهرة » بعد « بغداد » من حيث ضخامة مكتباتها ولا سيما زمن الفاطميين ، وليس صحيحاً أن العرب فيها هم الذين أحرقوا بقايا مكتبة الاسكندرية ٠ وكان في مصر زمن الفاطميين مكتبة العزيز بالله وقد حوت ٢٠٠ ـ ٦٠٠ ألف مخطوط مصنفة على أربعين قسماً ، غير أن هذه المكتبات تعرضت للنهب والحرق في آخر العهد الفاطمي ، لكن ذلك لم يمنع العصر المملوكي من متابعة الاهتمام بالكتب والمكتبات وتشجيعها ٠ وفي الأندلس كانت مكتبة الأسرة الأموية الحاكمة تحوي ٤٠٠ ألف مجلد جُمعت من مراكز الثقافة الاسلامية ولها فهرس يقع في (٤٤) مجلداً ، وقد نهبها البرابرة

سنة ١٠١٣ م بعد سقوط الأسرة الأموية، وعرفت الأندلس زخرفة النسخ وانتاج الكتب ، فكان يُنجز في قرطبة كل عام ٦٠ ـ ٨٠ ألف مخطوط ، وعبر الأندلس تعرّفت أوربا الثقافة اليونانية من خلال ترجماتها العربية .

وقد ألف العرب كتباً مرجعية تحوي فهارس للمكتبات والأعلام منها (فهرست ابن النديم) ٩٧٨ م . و (وفهرست الطوسي) ٩٥٥ م . وقد تأخرت عملية طباعة الكتب عند العرب المسلمين عنها في آسيا واليابان وكوريا والصين لأسباب اقتصادية ودينية ، مع أنه عُثر في مصر على خمسين كتاباً طبعت ما بين ٩٠٠ ـ ١٣٥٠ م بالقوالب الخشبية ، ويرجح أن طبعها كان عملا شعبياً متأثراً بفن الطباعة في الصين ، ويبدو أنها شكلت همزة الوصل بين الطباعة في الشرق الأقصى وأوربا .



وفي الفصل السابع : يتناول المؤلف « الشرق الأقصى في العصر الوسيط » ، فقد ران على الصين استقرار وجمود استمر أربعة قرون ، ولم تتعرض لهزات سياسية كالتي تعرضت لها اليونان أو الرومان ، فلم ينقطع التطور الحضاري . وقد أدى انتشار البوذية في الصين وغيرها إلى تطور إنتاج الكتاب نتيجة الطلب الواسع للكتب المقدسة ، حتى غدت بلدان الشرق مصدراً لكثير من الاكتشافات والخبرات التقنية ، ومنبعاً لأهم ثقافات العصر الوسيط ولا سيما الصين .

كانت الكتب في الصين خلال العهود القديمة تُنسخ باليد ثم تطبع آلياً بنقشها على الحجر أو الخشب حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، وقد اهتمت أسرة « تانغ » الحاكمة بتطوير العلوم والفنون ، فقرر الوزير « فنك ٩٣٢م » بعدما لاحظ كثرة الأغلاط في الكتب المنسوخة باليد أن تُختار نسخة مصححة وتطبع بالقوالب الخشبية ضماناً لدقة مادتها . وألّف لجنة لهذا الغرض عملت إحدى وعشرين سنة في تدقيق الكتب المقدسة وطبعها سليمة من الغلط ، ويُعد عمله موازياً لعمل « غوتنبرغ » في ألمانيا مع فارق التطور في التقنية ، وكان أكبر مشروع طباعي في الصين يتمثل في إصدار النص الكامل البوذي « تريبتاكا » في (٥٠٤٨) كراسة بلغت صفحاتها (١٣٠) ألف صفحة .

وتطورت شبكات توزيع الكتب في البلادفي عهد أسرة « سونغ » وأساليب الاعلان عنها، كما برزت المكتبات العامة ولكنها لم تكن تضاهي مكتبة البلاط التي كانت تنشر مؤلفات « كونفوشيوس » وقد خطرت للصيني «بي شنغ» فكرة عبقرية في القرن الحادي عشر هي طباعة الكتب بحروف خشبية متحركة الا أنه لم يحسن الاستفادة من هذا المخترع لأنه استخدم الصلصال المشوي في صناعة الحرف،لكن «الأويغور» الأتراك استفادوا من نظريته فطبعوا بها عدداً من الكتب عام ١٣٠٠ م تقريباً ٠

وفي كوريا اقتبس الكوريون من الصين النظام الكتابي واللغة ، ثم الدين. وقد استخدموا النقوش الحجرية في الطباعة ، ثم القوالب الخشبية ، ويعتقد بعض الباحثين أن الكوريين سبقوا الصينيين في الطباعة بوساطة القوالب الخشبية التي دمرت خلال الغزو المنغولي لكوريا عام ١٢٣٢ م ، ولكنها جددت بعد ذلك في عهد الملك « كوغيون » ١٢٣٦ م ٠ واحتل الكوريون منذ القرن الثالث عشر الميلادي المرتبة الأولى في هذا الشكل من الطباعة ، وهم أول مَنْ فكر في استخدام حروف متحركة مصنوعة من المعدن بدلاً من الصلصال ، وقام معهد الدولة لطبع الكتب في عهد أسرة « كوريو » بدفع عملية الطباعة بهدف نشر الديانة « الكونفوشية » ،ثم في عهد أسرة « يي » ، حين انشأت الدولة معملاً لصهر الحروف ٠وازدهرت الطباعة في عهد الملك « سيغ يون ١٤١٨ ــ ١٤٥٠م » حتى بلغت أوجها في القرن الخامس عشر ٠ وكانت الدولة تبيع الكتب وتشرف عليها ، كما تعرضت الطباعة إلى هزة بسبب الغزو الياباني لكوريا ، فقد دمرت الأحرف المعدنية ونهبت (١٥٩٢ ــ ١٥٩٨ م) ، فعاد الكوريون إلى الطباعة بالقوالب الخشبية ريثما صنعوا حروفاً معدنية جديدة ، لكن الطباعة على القوالب الخشبية كانت توفّر للفنانين فرصاً أكبر للابداع ، وليس لدينا ما يثبت أن أوربا استفادت من تجربة كوريا السابقة في تصنيع الحروف المعدنية ، ولعلها عرفتها من خلال النشاط التجاري عبر طريق الحرير٠

أما اليابان ٠٠ فقد تأثرت بالثقافة الصينية ، واقتبست عنها الكتابة ، والديانة البوذية في القرنين الخامس والسادس ، ولا سيما في الفترة التي كانت عاصمة اليابان فيها مدينة « نار » ، وعن الصين أخذت فن الطباعة على القوالب الخشبية ، فقد أمرت الامبراطورة « بوغودا » ٧٦٩/٧٤٨ م بطبع النصوص

البوذية السنسكرتية بالكتابة الصينية،ووزعت على المعابد ، وظلت اليابان بعد ذلك تعتمد على الصين حتى القرن الحادي عشر اذ نجد أعمالاً أدبية يابانية مكتوبة باللغة القومية بدل الصينية كقصة « الأمير غيني » ، واكتسبت الطباعة في اليابان منذ نهاية القرن السادس عشر دفعة من التطور ٠

كما أسهم « الأيغوريون الأتراك »في منطقة « تورفان » التركستانية في نقل ثقافة الصين والهند والتيبت وآسياالاسلامية في ثقافة شاركت فيها شعوب وأديان مختلفة ، فكانت الكتب فيها تطبع بست لغات ، وتُستخدم في الوثائق سبع عشرة لغة ، حتى أمست هذه الواحة جسراً لنقل تقنية الطباعة من الصين الى الشعوب الأخرى ، وهم الذين نقلوا الى« المونغول » كتابتهم ومعارفهم بعد أن أخضعهم جنكيزخان عام ١٢٠٦ م ٠

لقد مرت الثقافة والطباعة في الهند بعصرها الذهبي خلال العصرالوسيط، فطبعت الكتب تلبية لحاجة المدارس والجامعات ، وانحسرت طباعة الكتب بالهندية بعد الفتح العربي للهند ، وحلّ محله إنتاج الكتاب المرتبط بالثقافة الاسلامية، فتمّ نسخ القرآن الكريم والنصوص العربية والفارسية ، واستخدم الهنود سعف النخيل الذي كان يزرع أحياناً حول المعابد ، واستعملت سعفه للكتابة، كما استخدموا لحاء شجر « التبولا » في شمال غرب الهند ، وقد وصف «البيروني» استخدام هذه المادة للكتابة،لكن هذه المادة لا تصمد في وجه الظروف المناخية الرطبة للهند ، ولذا لم يصل إلينا منها نسخ تعود إلى ما قبل القرن الثالث عشر الميلادي ، واستخدم الحجر شواهد للقبور تدون عليه المراثي والأعمال الأدبية ، كما استخدم الهنود ألواحاً رقيقة للكتابة من الذهب والفضة.



وفي الفصل الثامن : المخصص لحضارات أمريكا القديمة ٠٠ يزودنا الكاتب بمعلومات طريفة ، فقد كانت لشعوب« الأنكا » التي استقرت في منطقة « البيرو » الحالية وما حولها حضارة دمرها الاسبانيون عام ١٥٣٣م ،فبنوا المدن ورصفوا شوارعها بالأحجار، وأنشؤوا شبكات الري ، لكن لم تكن للأنكا كتابة متطورة ،بل كتبوا بما يسمى«الكويبو»وهو نوع من الكتابة يعتمد على حبال مختلفة وألوان وعقد تعبر عن رسائل قصيرة ٠

وكان للأستيك والمايا والمكستيك كتابات أكثر تطوراً ، ولم يعرفوا الأبجديات الصوتية ، مثلما عرفت«المايا» لوناً من الكتابة التصويرية المعقدة لم تحل رموزها بعد ، كما مارسوا الكتابة بالرسوم ، ونقشوا نصوصهم على الحجارة والخشب والصدف ثم الورق ،وما تزال القبيلة الهندية « أوتومي » في جنوبي المكسيك تقوم بصنع الورق على الطريقة التقليدية السائدة قديماً قبل وصول « كولمبس » ٠

ومن أشهر مخلفاتهم مخطوط « دريسدن » ويضم التقويم السنوي المقدس لمؤلف مجهول ، وطوله ستة أمتار ، وقد كان للمبشرين اسهام في تصفية تراث المايا الكتابي وحرق كتبه ، وكان يضم معارف فلكية ورياضية وتاريخية هامة ، ولم يبق منه الا مكتبة الأسرة الحاكمة التي بقيت حتى عام ١٥٤٩ م ٠ وتعرضت كتب « الأستيك » للمصير ذاته ، وأثر عن هذا الشعب براعته في الرسم ٠

وقد استمرت هذه الشعوب بتاليف كتب بعد الاحتلال الاسباني محتفظة بتقاليدها الثقافية ، ومن هذه الكتب كتاب « تاريخ الأستيك » ٠



وفي الفصل التاسع : ينتقل المؤلف إلى دراسة حركة الاحياء والنهضة في أوربا ، ولا سيما الانبعاث الثقافي في إيطاليا ، ويطلق اسم رجال الاحياء على المفكرين الذين جمعوا ودرسوا تراث العالم القديم ولا سيما تراث اليونان والرومان ، وقد كان لهم فضل جمع المؤلفات والمخطوطات من الأديرة والكنائس والمكتبات وتحريرها ونسخها وترجمتها باعثين بذلك نهضة أوربية ، لم تعرفها أوربا منذ زمن مما أثار دوافع حب المعرفة ولذة الكشف ، وقد تغلب الاهتمام بالمعارف والعلوم في هذه الحركة على الاهتمام بالكتب الدينية في العهد القديم ، بمساعدة عدد من الحكام المتنورين ٠

وقد أسهم في هذه الحركة أدباء وشعراء ومفكرون ٠٠ منهم « بترارك » الذي نذر حياته للبحث عن المخطوطات وإحيائها ومراجعتها وتحقيقها ونقدها، مثلما ألهمته مؤلفاته الشعرية العظيمة بماضيها الروحي ، فوجد في العصر القديم مُثله العليا ، ثم وهب مكتبته لكنيسة القديس مرقص في فينسيا ، ثم أكمل خطاه تلميذه الكنسي ، الذي جمع في رحلته مخطوطات ثمينة من بلدان

عدة• وكانت المخطوطات تنسخ بسرعة، أو تطبع فيما بعد • وبرز «نيقولا نيكولي» كأحد أشهر هواة جمع الكتب وأنفق في سبيل ذلك ثروته (١٣٦٤ - ١٤٣٧م) • وقد آلت مخطوطاته إلى ميديتشي الذي بنى دير « القديس مرقص » ليكون مكتبة تضم تلك المخطوطات •• وقد فقدت تلك المكتبة عدداً من مخطوطاتها وكتبها في القرنين السادس عشر والسابع عشر •

وفي أوربا الغربية لم تكن اللغة اليونانية شائعة بعد سقوط روما إلا بين الرهبان ، وكان « روجر باكون » يتقنها ، وألّف كتاباً في قواعدها ، وقد دفع خوف أوربا من العثمانيين المنتصرين في مواجهة بيزنطة إلى الاهتمام بالتراث اليوناني ، كما نزح عدد من الرهبان والمثقفين اليونان إلى الغرب بعد سقوط القسطنطينية ، وهم يحملون معهم المخطوطات القديمة ، ومنهم « باسيليوس يساريون » الذي أصبح بيته في روما مركزاً ثقافياً للنخبة المهتمة باللغة اليونانية • وكان قصر آل مديتشي ملتقى المهتمين بالتراث القديم ، وراعياً للأدب والفكر ، وقد استطاعت هذه الأسرة أن تجمع مكتبة قيمة من كتب التراث سمح للأصدقاء أن يفيدوا منها، قبل أن تنتقل إلى روما ، فكانت هذه المكتبة حجر الزاوية في النهضة الأوربية، وقد سار الأمراء الآخرون سيرة أسرة مديتشي في الاهتمام بالكتب والمخطوطات القديمة ورعاية الفكر كالدوق (فدريكو مونتلفترو) الذي أسس مكتبة في « أوربينو » وقد اشتراها فيما بعد البابا « الكسندر السابع » •

وكانت أكثر المخطوطات ترد إلى القسطنطينية عن طريق « البندقية » ، نظراً لصلاتها بالشرق ، فحوت أفضل مكتبة عامة، إضافة إلى مكتبة الفاتيكان بروما ، وكان بوسع الناس استعارة المخطوطات والكتب النادرة منها •

كما سارت فرنسا وألمانيا وهنغاريا سير ايطاليا في جمع المخطوطات، وقلّدت الأسر الحاكمة أسر إيطاليا في هذا المنحى، وأصبحت ألمانيا بعد أن اخترع « غوتنبرغ » الطباعة أكبر منتج للكتب• مع أن فرنسا لم تُعنَ بالمخطوطات القديمة إلا في زمن متأخر نسبياً ، في زمن شارل السابع ولويس الثاني ، وقد أسهمت في حركة الاحياء أدمغة فرنسية متنوّرة مثل : « رابليه ومونتين » وسعى فرانسوا الأول إلى إصدار بلاغ يحتم فيه تزويد المكتبة الملكية بنسخة

من كل كتاب يُطبع ، كما أثرت حركة الاحياء في بريطانيا وحياتها الروحية ، ومن رجالها « همفري دوق غلوستر » الذي كان شديد الحماسة للمثل العليا لحركة الاحياء ٠

والى « كرواتيا » وصل مدّ حركة الاحياء بقوة ، ومن رجالات تلك الحركة فيها : « نيقولا مودرشكي ـ إيفان ستويكوفيتش ـ ماركو ماروليتش ـ » وقد عُني هؤلاء بجمع المخطوطات واحياء التراث القديم ٠ وفي مدينة « دوبروفينك » كانت مكتبتا الدومينيكان والفرنسيسكان من أهم المكتبات مفتوحتين للمواطنين ٠ وبلغ من حماسة رجال حركة الاحياء للتراثين اليوناني والروماني أن ازدروا الخطوط والكتابات الأخرى « البربرية » الشائعة في أوربا ، ودعوا الى البساطة والوضوح والأناقة في الخط ، وأعجبوا بالخط الكارولي ، يعارضون به الخط القوطي الحديث المثقل بالتزيينات ٠ وأدخل « بترارك » تجديدات على شكل الخط وتابع تطويره « سالوتي » في نهاية القرن الرابع عشر ، فَسَادَ خط جديد ينسجم مع متطلبات السرعة والوظيفية عُرف بالخط الاحيائي ٠

وتجدر الاشارة الى أن الخط العربي مرّ بتطوير مماثل حين ساد خط الرقعة على يد « ابن مقلة » وسواه بدل الخطوط المعقدة كالكوفي ، استجابة لمطالب السرعة وذلك قبل حركة الاحياء في أوربا ، أي منذ القرن العاشر الميلادي ٠

★ ★ ★

ويخصص المؤلف **الفصل العاشر** ٠٠ للحديث عن بدايات الطباعة في أوربا ، فقد ازدهرت بتأثير انتشار التعليم ، وكان لا بدّ من توفير مواد طباعية رخيصة ، وسرعة في انتاج المواد المطبوعة ، أما الحاجة الأولى فقد حلّت باعتماد الورق في الطباعة على الرغم من ضعف مقاومته للزمن ، وقد انتصر الورق وانتشر بعد أن اخترع « غوتنبرغ » الطباعة ، وارتبطت صناعته بها ، وأصبح المنتجون يضعون له علامة تجارية تظهر في مادته بوضوح اسم المصنع الذي ينتجه ، وقد ساعدت هذه الاشارات على تتبع تاريخ صناعة الورق فيما بعد ، ودراسة تاريخ طباعة الكتب وتحديد مصدرها ٠

وقد قضى اختراع « غوتنبرغ » على الطباعة بالقوالب الخشبية تدريجاً ٠٠ كما بدا في مرحلة « غوتنبرغ » ازدواجية في انتاج الكتاب تعكس ثنائية ثقافية ، فثقافة النخبة التي بدأت موضوعاتها تحتل مكانتها في الكتب المطبوعة كانت تختلف عن ثقافة الجماهير وتبدو غير مفهومة سواء من حيث الموضوع او من حيث اللغة ، كما تفاوتت الآراء في ما قيل من استفادة « غوتنبرغ » من تقنية الصين في الطباعة بالحروف المعدنية قبله ، ولعله اقتبسها منهم عن طريق التجار الوافدين من طريق الحرير ، ويؤكد الهولنديون ان الطباعة بالحروف المعدنية نشأت في بلادهم قبل « غوتنبرغ » ٠

وانتشرت بعد ذلك المطابع في مدن أوربا ، فبلغت ايطاليا عام ١٤٦٥ م ٠ وبولونيا عام ١٤٧٠ م وفي فرنسا عام ١٤٧٠ حين ازدهرت في ليون ، وكانت فرنسا في نهاية القرن الخامس عشر تطبع ١٥٪ مما تطبعه أوربا كلها ،

وفي هولندا عام ١٤٧٣ م وفي بلجيكا وبروكسل عام ١٤٧٥ م ٠ وقد نقل الألمان طباعة الكتب الى اسبانيا بالتعاون مع الكنيسة ، وبدأت برشلونة ٠ أما في انكلترا فقد نقل « وليم كاكستون » مطبعته من بلجيكا الى لندن عام ١٤٧٦م ، وشرع في طبع الآثار الأدبية الانكليزية ٠ وفي « براغ » عرفت الطباعة في نهاية القرن الخامس عشر ٠ أما في بولونيا فقد طبع أول كتاب في « كراكوف » عام ١٤٧٣ م ، وفي كرواتيا عام ١٤٨٣م ، وفي الجبل الأسود عام ١٤٩٣ م ٠

وأبرز ما حققته المطبعة تعميم الكتاب بين الناس ورخص ثمنه وسهولة نقله والحصول عليه ، واستُغلت المطبعة لأغراض دعائية ، كما ساعدت الطباعة على تمازج الثقافات ، وتعلّم اللغات ، وتطوير التعاليم ومكافحة الأمية ، وتعميم الثقافة الشعبية ، وعرفت معارض الكتب منذ أن اخترعت الطباعة ، كما انتشر فن الاعلان عن الكتب بالملصقات منذ عام ١٤٦٦ م ، وشاعت القوائم والفهارس ٠

أما عن ثمن الكتب المطبوعة فقد كانت أدنى ثمناً من المخطوطات بنسبة الربع ، وتزايد رخص ثمنها مع الزمن ٠ وتبيّن أن كلفة ورق الكتاب كانت تفوق أجرة اليد العاملة ٠

وحرص الطابعون على أن يكون حجم الكتاب المطبوع مماثلاً لحجم المنسوخ ، وتضاف على هوامشه التعليقات المصاحبة للنص بحروف

أصغر ، وقد تتجاوز حجماً النص الأصلي ، ولم يكن الغلاف يتضمن المعطيات الأساسية كاسم المؤلف والعنوان ، وانما يحدد الكتاب ومؤلفه في آخره . كما كانت الكتب تصدر دون أغلفة حتى نهاية القرن الخامس عشر ، وتميز الكتاب المطبوع عن المنسوخ مع مرور الزمن ، وكان الطابعون يتركون فراغات في الكتاب المصوّر ليملأها الرسامون بالأشكال المطلوبة ، ويُعد « بامبرغ » أول من طبع الرسوم المزينة في الكتب في العقد السادس من القرن الخامس عشر بوساطة القوالب الخشبية . وقد تطورت الرسوم بهذه الطريقة تطوراً ملحوظاً ، واستخدمت اللوائح النحاسية المحفورة لاعداد الرسوم وكانت معروفة من قبل في الصين .

ومنذ مطلع القرن السادس عشر استخدم المجلدون الأسطوانة المعدنية التي حفرت عليها الرسوم لتزيين الأغلفة متأثرين بالأسلوب الاسلامي في فن التجليد ، وقد اقتبسوه بدل ألواح الخشب للأغلفة ، واستُخدم الجلد المغربي للأغلفة الفاخرة ، وكان لكل طابع حروفه الخاصة التي يسكبها للتمييز بين نتاج دور الطباعة من حروفها .



وفي **الفصل الحادي عشر** : يتابع المؤلف رحلة الكتاب منذ عهد النهضة الى الثورة الفرنسية ، فقد أصبح الكتاب أداة لنشر المعلومات والتقنية ، ووسيلة لتطور العلم والثقافة ، به تسجل وتحلل وتفسر كل اضافة تطرأ على العلم ، وتحولت الطباعة الى صناعة مزدهرة ، كما ازداد عدد الناشرين ، وانفصلت حرفة الطابع عن حرفة الموزع أو الناشر منذ القرن السادس عشر .

وأدت حرب الثلاثين ١٦١٨ ـ ١٦٤٨ م الى تجميد نشاط الطباعة في ألمانيا ، وهي أهم بلدان العالم في هذا المجال ، وفقدت الطباعة في ايطاليا أهميتها منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر بسبب الاحتلال الفرنسي لايطاليا ، وتمركزت الطباعة في فرنسا ، بباريس وليون ، لكن الرقابة الملكية حدّت من انطلاقتها ، كما أضرّ احتكار الدولة لها بمصالح الطابعين الخاصة . أما في هولندا فقد ازدهرت منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر ولم تكن تخضع للرقابة .

أما في انكلترا فلم تشجع الرقابة تطور الطباعة نظراً للقيود المفروضة على الكتاب، ولم تعرف الطباعة المتطورة الا في القرن الثامن عشر • وفي سويسرا كانت الطباعة متطورة منذ القرن الخامس عشر في « بازل ولوران » ثم أصبحت جنيف مركزاً هاماً بعد لجوء دعاة الاصلاح اليها من فرنسا •

وعرفت بلدان أوربا الوسطى والشرقية الطباعة خلال القرن الخامس عشر فطبع أول كتاب في روسيا عام ١٥٦٤ م ، وفي أوكرانيا ١٥٧٤ م • أما في الشرق الأقصى فقد نشر المبشرون الكتب العلمية •

وكان من أثر اختراع الطباعة انحسار اللغة اللاتينية ، لتحلّ محلها اللغات الشعبية ومنها الفرنسية والانكليزية والاسبانية • وأثّر الكتاب المطبوع باللغات القومية الأدبية ، كما ازدادت طبعات الكتب الشعبية التي يتألف أكثرها من الروايات والقصص والتقاويم والحكايات الخرافية والبروج الفلكية ، والمعتقدات الشعبية ، وشهدت رواجاً ، ولا سيما التي صيغت بلغة شعبية محكية لكتّاب مجهولين ، وهي تهذّب الناس وتعلمهم السلوك والأعراف •

وقد أدى التعطش الجماهيري لمتابعة الأحداث كالحروب والثورات الاجتماعية في البلدان النائية وتعرّف الحضارات ، الى اختراع الصحف منذ القرن الثالث عشر ، وازداد عددها في مطلع القرن السادس عشر ، ولم تطبع هذه الصحف الا منذ القرن السابع عشر ، وقد سبقها اصدارات لكتيبات لمناسبة أي حدث هام •

وفي سنة ١٥٩٧ م صدرت أول مجلة شهرية في « أوغسبرغ » ونشرت أخباراً من بلدان عديدة • أما أول جريدة يومية صدرت فكانت في عام ١٦٦٠ م في «لا يبزغ» أصدرها رجل الطباعة « ريتش » • وفي فرنسا تاخر صدور أول جريدة يومية الى عام ١٧٧٧ م ، ثم توالى صدور المجلات العلمية المتخصصة خلال القرن الثامن عشر والمجلات الأدبية والترفيهية •

هذه لمحة عن [تاريخ الكتاب] وهو يعدّ تاريخاً للطباعة وتطور الفكر ، برهن فيه المؤلف الكرواتي « الكسندر ستيبشفيتش » على ثقافة واسعة في مجال اختصاصه • وقد تفاوتت آراء النقاد في الكتاب بعد صدوره ، الا أنه يبقى من المراجع الهامة في تاريخ الكتاب ، بل من أشملها •

دمشق : عبداللطيف الأرناؤوط